زادت الاجور من ٣٠ الى ٨٠ في المئة. وهذه النتيجة صحيحة ولكن ليس الاعتصاب سببها بل سببها ازدياد الثروة العمومية وتقدُّم العلوم الصناعية واتساع نطاق الاعمال. ثم ان الاعتصاب لم يشمل كل الاعمال ولكن الاجور زادت فيها كلها فالفلاحون الذين يعملون بالاجرة تضاعفت اجورهم عندنا في هاتين السنتين وهم ابعد الناس عن الاعتصاب وزادت اجور الخدَم من برابرة وغيرهم وسبب ذلك ازدياد الثروة العمومية وازدياد الربح من الاعمال الزراعية

واسباب الاعتصاب ثلاثة وهي جهل القوانين الاقتصادية وجهل حالة السوق وطمع العمال او ارباب الاعمال. كما ان اسباب الجنايات ثلاثة ايضاً وهي جهل القانون وجهل واقعة الحال وسوء النية او الميل الى الظلم. والظاهر ان الامل بتقليل الاعتصاب لا يزيد على الامل بتقليل الجنايات ومع ذلك وضع بعض علماء الاقتصاد السياسي قواعد من شأنها تقليل الاعتصاب او منع حدوثه وازالة الخلاف من بين العمال واصحاب الاموال سنأتي على ذكرها في الجزء التالي

عمران دمشق

« زراعتها »

منذ عهد النبط والرومان واليونان والعرب ما برحت الزراعة بحال تكاد لا تختلف في جماع ادوارها في قرن عن تاليهِ الاَّ قليلاً حتى ان قارئي اوربا واميركا لم تعارحا الاصول القديمة وتجعلا الزراعة علماً خاصاً برأسهِ يدرس في المدارس الاَّ منذ نحو مئة سنة اما بلادنا فلم تزل محافظة على تقاليدها القديمة تنهض الحاجة بالفلاَّح فيحرث ارضهُ و يثيرها اضطراراً ويبذرها ويتعاهدها بالسقي و يحصدها و يدرسها بادوات لا تطلق عليها اسم الادوات الاَّ تجوّزاً يتعلم معاناتها من ابيهِ ووليهِ. ويا ربَّ كيف كان حال الفلاح هنا لو لم يكن من ورائهِ ذاك الخصب الطبيعي

وهذه سورية التي يضرب المثل بزكاء منابتها واعتدال طينتها وحسن مناخها وكثرة مياهها على كثرة حزونها وجبالها ما فتئت زراعتها كما عرفها الاسلاف بل كما عرفها الانسان منذ آلاف من السنين ما فيها شيء من العلم ولا المعرفة يعوزها كثير مما يجود فيها من النباتات والاشجار والهمم متقاصرة عن جليهِ والايدي مقطوعة عن المران عليهِ. قال الرحالة فولني عند كلامهِ على مناخ سورية ان الارزّ يجود زرعهُ على شواطيء بحيرة الحولة وان النيلة تنبت بلا عمل

على ضفاف نهر الاردن في يسار ولا تحتاج الاَّ الى قليل من العناية حتى تستوفي الشرائط و بعد ان افاض في الكلام على مدن سورية كافة وما اختصت بهِ من انواع الثمار والاشجار قال ان دمشق تفاخر وحقٌّ لها الفخر بان فيها كل الثمار التي تحصل في ولايات فرنسا ثم ذكر ان البنَّ الذي يزرع في تهامة واليمن تلائم زراعتهُ ارض سورية ومناخها يلائم طبائع الثمار كلها فينبت فيها النخل كما ينبت العنصل والسرو. ولا شك ان سورية كانت منذ القدم من احسن البقاع لذلك جعلها الرومان واليونان من اهم ولاياتهم وقارنوا بينها وبين مصر في الخصب وجودة التربة حتى ان احد عمال الاتراك سئل يوماً عن رأيهِ في سورية ومصر فقال " ان مصر مزرعة حسنة لكن سورية مصيف بهيج "

ومع ان الزراعة سائرة لعهدنا على الطرق القديمة العقيمة نرى البلاد خصوصاً قرى ضاحية دمشق متماسكة احوالها نوعاً على قلة ما يصدر من الغلات الى الخارج. ولعمري لو رُفع عن الفلاح لاسيما البعيد ساعات عن الحاضرة ظلمُ ملتزمي الاعشار وفرسان الدرك وجباة الاموال الاميرية وقُلِّلَ من عدد الاعانات التي يقضي عليهِ دائماً ان يدفع قسطهُ منها مضاعفاً بالجبر والقوة وأُبطلت سخرة الانسان والحيوان الى المطارح الشاقة النائية لغدا ما يُدعى بالغوطة من هذا البلد الامين زهرة البقاع والضياع وانموذج الحقول في سائر الاصقاع

ومنذ خفّت وطأة المصادرات في الظاهر واطمأن ارباب الاراضي الواسعة على املاكهم وانتشر الامن في الاطراف بطبيعة الزمن حسنت والحق يقال حال المزارع وتوفر اهلها على استثمارها واستنباتها بحيث اصبح ما يحيط بدمشق منها عامراً بصنوف الثمار والغلات يدر لبناً وعسلاً. اما ما هو وراء الجبال من القرى فحالهُ سيئة. هناك تنفرج مسافة الخلف وينفتح ميدان الخبث فيبسط ارباب النفوذ ايديهم عليها وحال الفلاح ثمت كما كان حالهُ في روسيا قبل مئتي سنة يباع مع الارض كما يباع الزنجي الرقيق وهيهات ان يحصل الاَّ بشق النفس قوتهُ من الخبز القفار المعمول في المنلة من الذرة او الشعير والغني منهم من يأكل خبز الحنطة ويذوق اللحوم مرة في الاسبوع وقس على ما ذكر ما لم يذكر

واهم محاصيل البلاد الحنطة والشعير والذرة والفول والعدس والبيقية والحلبة والفصة والقنب والزيتون والجوز واللوز والمشمش والدراق والبطيخ والخيار. والبقول على اختلاف انواعها تُنبت غالباً في الحدائق القريبة من هذه المدينة. قال البدري وكان حكماء اليونان ازدرعوا هذه الرياض والازهار في سفح جبل قاسيون لحكمة وهو انهُ يقيها البرد وكونها في دائرة وان النسيم اذا مرَّ بها يحمل منها ما استطاع و يسري بهِ الى من تحتها من اهل المدينة والسكان

ومن اهم الفلاّت الصيفية في الغوطة القنب الذي يزرع في اثنتين وعشرين قرية عدا الحدائق المجاورة لدمشق وذلك للانتفاع بقشره وبزره . يعتاش بهذا الموسم الوف من الخلق ويشغل الفلاّح السنة بطولها فقد يبذره في آذار او نيسان ثم يتعهده بالسقي والتعشيب الى اواخر ايلول وعند ذلك يقلع من الارض وقد ارتفى طوله في الغالب على ثلاثة امتار فيحزمونه حزماً وينقعونه بالماء في منافع خاصة به نحو اربعين يوماً ثم ينشرونه ويأخذ النساء ينزعن قشره عن عوده حتى اذا كشط يحزم فيباع الرطل الشامي من قشره غالباً بستة الى تسعة قروش تعمل منه الحبال وغيرها . وقد يصدر منه قليل مما يفيض عن حاجة البلاد

ورائحة المنافع تضرّ كثيراً بصحة اهل القرى القائمين على معالجة القنب اذ تنبعث منها روائح كريهة وجراثيم قتّالة تراهم من جرائها صفر الوجوه ضئال الاجسام لكثرة ما يتعرضون له من العفن . ولو كان هذا القنب يجود في قرى البلاد المتمدنة لغُنيت حكومتها برفع اضراره عن رعاياها ولو كان القنب يُثمر بالمياه على هذا النحو في فصل الصيف لملك ثلاثة ارباع السكان الممارسين لصنعه ولكن المستنقعات قد لا تضر في الشتاء ضررها في الصيف

هذا وقد كانت قديماً في دمشق اشجار وانواع من الثمار متنوّعة ابلاها الزمن. قال كاتب جلبي ان في خندق قلعة دمشق اشجاراً مثمرة وشجر الكستانة والمشمولة واعني البيسم وهو شجر مثمر كالاجاص ولا كستانة ولا يسيم لهذا العهد. وهنا ننقل فصلاً ذكرهُ صاحب محاسن الشام في انواع الزهور والثمار في القرن التاسع فقال :

الورد جنس تحتهُ ستة انواع بدمشق خلا الاسود. والنرجس وتحتهُ انواع كاليعفوري والبري والمضعف . والبنفسج انواع عراقي وملبجي وابيض . والياسمين وهو بلدي وتوتي وعرائسي واصفر . والمنثور اصفر وابيض وبنفسجي وازرق . والسوسن ابيض واصفر وازرق . والزنبق والبهار والارديون صنف من الاقحوان منهُ ما نوارهُ اصفر ومنهُ ما نوارهُ احمر . والبابونج والآس . والريحان جنس تحتهُ انواع نرنجي وجماجمي وطثري وطراطيري وجُمّام. والنمام وشقائق النعمان والليلوفر اصفر وازرق وبنفسجي واحمر . والبان . والترحنا كان يطلع خارج المدينة في الغور وفي الارض الحارّة من قرى الشام ويعمل منهُ دهن . والحيلاف شجر يشبهُ الصفصاف غير انهُ في اوائل الربيع تصبغ جميع اغصانهِ بالاحمر كقضبان المرجان . والزنزلخت والسرو . قال قان حكماء اليونان لما رأوا الجانب الشمالي يصلح لزراعة الازهار ورأوا جانب الارض القبلي اختاروها لغرس الاشجار فمنهُ المشمش وهو واحد وعشرون صنفاً بدمشق . حموي . سنديانى . اويسي . عربيلي . خراساني . كانوري . بعلبكي . لقيس . لوزي . وزيري . كلابي . سلطاني .

حازمي . ايدمري . منيني . بردي . ملوّح . شراط البخاتي . جلاجل القلوع * ومن محاسنها القراصيا وهي سبعة اصناف . رشيدية . بعلبكية . افرنجية . رومية . طعامية . بزرة . فيجية * والكمثرى اي الانجاص وهو اصناف . عثماني . عيلاني . خلافي . سمرقندي . صيني . ملكي . صقلاني . مغازلي . ببرودسيه . رحبي . وربي . قناديلي . خنافسي . معنّق . همروري . عربي . بعلبكي . ماوردي . عقربائي . شتوي . صيفي . سكري . قهلي * ومن محاسنها التفاح وهو اصناف كثيرة بدمشق نذكر بعضها . سكري . مسكي . فتحي . صيني . شتوي . صيفي . قاسمي . فاطمي . لحابي . فضي . حديتي . جناني . حرستاني . لبناني . حلواني . رهشاوي . اخلاطي . قصري . بربري . نبطي . ماوردي . بطيخي . مجهول * والدراقن . ويسمى في القاهرة خوخاً وهو اصناف بدمشق منها . خواجكي . رصاصي . حمصي . نيرباني . لوزي . لزيق . لقيس . كلابي . صالحي . غنّي . مطغري . سافري . صوري . زهوي . لحم الجمل . مجهول * والاجاص ويسميه اهل الشام الخوخ كان يوجد بها اصنافاً صيقي . زجاجي . قبرصي . اسود . عين البقر . خوخ الدب . خوخ الطعام . اغبر . سفير . حابكي . برقوق . مجهول . برزة * والزيتون . والرمان بدمشق اصناف شويكي . بردى . ماوردي . مليسي . كوفي . برجنيقي . مجاقي . سويخي . مصري . سلطاني . محجر . مطوق . تدمري . لقيط . حصوي . طقاطقي . قطي . مشبه . حامض الطعام . لفان . رأس البغل . مجهول * والبطيخ اصناف والعنب كذلك منها بلدي . خناصريه . عاصي . زبني . بيتوني . قناديلي . افرنجي . مكاحلي . بيض الحمام . حلواني . بوارشي . جبلي . قصيف . ابزاز الكلبة . قشليش . كرتاني . عبيدي . شحماني . جوزاني . داراني . مخ العصفور . عرايشي . رومي . مشهي . نيطاني . عصيري . رناطي . درق الطير . مساقي . جرصي . مجذع . شفراوي . دربلي . قاري . علوي . عينوني . مورق . مسعر . مسمط . مرصص . مخضر . مقوص . حماري . تفاحي . رهباني . زردي . مبرد . مخصّل . مغازلي . شحمة . القرط

ومن محاسنها اللوز وهو اصناف منهُ الجبلي . قسطاسي . عربلي . عقابي . بندقي . شحمي . والخشخاش والسفرجل والبطيخ الضميري الاصفر والسمرقندي والسلطاني والشامي والمخطط الاصفر وهو المسمى بالشمام ويسمى بمصر باللفاح * والتين وهو انواع منهُ البرزي والمزي . ماسوني . رومي . بعلبكي . كعب الغزال . غريب . طيفور . شتوي . جبلي . حفيراني . ملكي . عدلي . مكتب . مجهول . درق الطير * والخيار والقثاء والهليون والطرخون والكرنب والقنبيط والباذنجان . والكراث والجزر والزعتر والفجل والشذاب والنعناع والرشاد والبقلة والاسفاناخ

والكرفس والسلق والبصل والثوم والكسفرة والكراويا والكمون والقرع والكمأة واللوبيا والارز والباقلا والذرة والذخن والماش والقرطم والعدس والسمسم وبزر قطونا والترمس والحمص والحلبة والخس والبندق والجوز والفستق والتوت والرطب والقصب والاترج والليمون والنارنج وزهر القرنفل والخزام والشيح والسماق والزعرور والزيزفون والخرتوب والرياس والصنوبر والقلقاس والموز وقصب السكر والقنب . اه

واعلم ان بعض هذه الانواع فقد لعهدنا كالقراصيا والخرتوب والصنوبر والموز وقصب السكر وقد استجلب بعض الاعيان المولعين بالزراعة شجراً كثيراً مما لم يكن يعهد عندنا كالاوكالبتس والاكاسيا والمشمش الهندي اما النباتات والبقول الحديثة فكثيرة جداً

« صناعتها »

كلما تأمل الناقد الخبير في صناعة الفيحاء سابقاً وصناعتها لاحقاً يتجلى لهُ سرّ قول ابن خلدون ان الصنائع لا بدَّ لها من العلم وانك تجدها في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الاَّ البسيط فاذا تزايدت حضارتها ودعت امور الترف فيها الى استعمال الصنائع خرجت من القوة الى الفعل وان على مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتأنق فيها حينئذٍ واستجادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والثروة وان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امدها ولهذا نجد في الامصار التي كانت استجرت في الحضارة لما تراجع عمرانها وتناقص بقيت فيها آثار من هذه الصنائع ليست في غيرها من الامصار المستجدثة العمران ولو بلغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك الاَّ لان احوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال وتكررها . وان الصنائع واجادتها انما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجد الطلبات اليها وانهُ اذا ضعفت احوال المصر واخذ في الهرم بانتقاض عمرانهِ وقلة سكانهِ تناقص فيهِ الترف ورجع اهلهُ الى الاقتصار على الضروري من احوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لان صاحبها حينئذٍ لا يصح لهُ بها معاشهُ فيفرُّ الى غيرها او يموت ولا يكون خلف منهُ . ثم قولهُ ان العرب ابعد الناس عن الصنائع وانها رسخت في الشرق منذ ملك الامم الاقدمون من الفرس والنبط والقبط وبني اسرائيل ويونان والروم احقاباً متطاولة فرسخت فيهم احوال الحضارة ومن جملتها الصنائع

نعم ان صناعتنا منحطة كسائر احوالنا في العمران لكنها تفضل صنائع جميع مدن سورية اللهمَّ الاَّ ما تجدد حديثاً في فلسطين من صناعات اليهود والالمان فانها عندهم على حصة موفورة

من الاستجادة والتنميق . ويتعذر الآن ان نأتي على تفصيل صنائعنا بعد الاسلام فما بالك قبله واخبرني احد ثقات العلماء ان لابن الصائغ الدمشقي منظومة في ثلاثة آلاف بيت في الصنائع فيها ولا شك كثير مما يعوزنا من الايضاحات

ولقد علم بالاستقراء اجمالاً ان صنائع دمشق كان منها البسيط او الضروري والمركب او الكمالي وان امهات الصنائع كلها كانت مستحكمة ملكتها فيها شأن كل مصر تحضر . ولما استوفت عمرانها على عهد الدولة العباسية الى ما بعد الحروب الصليبية صار للصنائع شأن يذكر تجد تفاصيلها بالعرض مبثوثة في تضاعيف الكتب . مثال ذلك ان السلطان صلاح الدين يوسف لما كان محاصراً عكاء سنة ٥٨٦ وكاد ييأس من فتحها لان الصليبيين كانوا قد اصطنعوا ثلاثة ابرجة من خشب وحديد والبسوها الجلود المغشاة بالخل بحيث لا تنفذ فيها النيران و يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر جمع الصناع من الزرّاقين والنفاطين وباحثهم في احراقها ووعدهم عليهِ الاموال الطائلة فضاقت حيلهم عن ذلك وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي يعرف بعلي ابن عريف النحاسين فذكر ان لهُ صناعة في احراقها فطبخ ادوية لذلك مع النفط في قدور من النحاس حتى صار الجميع كانهُ جمرة نار ثم ضرب البرج الواحد بقدر فاشتعل من ساعتهِ وصار كالجبل العظيم من النار ثم رمى الثاني والثالث فاحترقا كلاهما . ومن الصنائع التي كانت في هذه العاصمة فابلتها وارتابها الايام

(القيشاني) فقد كانت قاعات دمشق وقصورها ومبانيها العامة مملوءة منهُ مزدانة بهِ ولم تزل تشاهد منهُ قطع في بعض جدران دورها وجوامعها وحماماتها كما انهُ كانت تعمل منهُ الفساقي والسلسبيلات والباذهنجات والقماقم والزهريات والقلل وغيرها واحدث ما عثر عليهِ من القيشاني سلسبيل بجدار جامع الدرويشية عليهِ تاريخ سنة ٩٨٣ . والغالب ان هذه الصناعة فقدت من دمشق منذ زهاء مئة سنة وظهر لبعض الافاضل ان القيشاني يعمل من الرمل الابيض والجبس يجبلان معاً ويفرغان في قوالب على الشكل المطلوب وتكتب على سطوحها آيات او احاديث او اشعار او ترسم عليها نقوش مختلفة بمواد ثابتة ويذر عليها مسحوق الزجاج او تطلى بهِ ممدوداً بسائل غروي وتشوى في تنور معدّ لذلك فيسيل الزجاج ويكسوها قشرة رقيقة نقيها من الفواعل والمؤثرات زمناً طويلاً وتظهر النقوش والكتابات زاهية بالوانها الطبيعية

(الفسيفساء) كانت تصنع بدمشق فتنوسي امرها منذ قرون وقد بقي منها بعض قطع في الجدار الشمالي من حرم الجامع الاموي رغم عدة حرائق اصابتهُ وفي قبة الملك الظاهر بيبرس . والفسيفساء فصوص مربعة من الزجاج الملوّن المذهب تلصق بالجدران مرصوفاً

بعضها بجانب بعض بحيث تتألف منها نقوش وصور جميلة تمثل ابنية وازهاراً واشجاراً وغابات وحدائق وما ضارعها

(الزجاج الملوّن) وكان معروفاً بالدمشقي ويتخذ للزخرفة والزينة ومنهُ الاكواب والآنية على اختلاف ضروبها . ولشعرائنا قصائد لطيفة في وصف الزجاج والكؤوس بما لم يبقَ بعدهُ غاية للاجادة ويشير الى تفنن الصناع في وضعها . وفقدت صناعة الزجاج ايضاً وانحصرت صنعة البسيط منهُ في دمشق باناس لا يتاجرون عيشهم الاَّ بشق الانفس وذاكرت احد شيوخ الشعراء من مسيحيي حوران واستشهد لذلك ببيت الاخطل القائل في تشبيهِ

كأن طيور الماء في حلباتهِ اباريق اهدتها قيافى لصرخد

قال ويحتمل ان قيافى كانت مدينة قرب صرخد في جبل الدروز يجاد فيها صنع الآنية الزجاجية فشبَّه الشاعر بها وشبَّب

(النقش او الدهان) هو من احسن صنائع دمشق القديمة يكون على الخشب والحجر ومن يدخل قاعة من القاعات القديمة بدمشق يرى مصداق هذا القول يرى الالوان زاهية زاهرة كأنها نقشت الآن وفي دمشق الى اليوم قاعات وابهاء واواوين مضى عليها زهاء مائتي سنة ولا تزال يرونقها يخيَّل لك معها ان النقَّاش قد خرج منها الساعة فتُدهش كما يدهش الداخل الى متاحف الآثار المصرية من نقوش بيبان الملوك وبني حسن وسقارة وكتاباتها ورسومها وقد مضى عليها قرابة اربعة آلاف سنة على حين ان النقش المستعمل لعهدنا يتصل لونهُ ويكمد في شهور

(السيوف والخناجر) وهذه من الصنائع التي خُصت بها هذه العاصمة فاشتهرت النصال الدمشقية ولا شهرة الرماح السمهرية والسيوف المشرفية ايام الجاهلية وعرفت بصفاء مائها واخضرار لونها وارهاف حدّها ولطف فرندها يزيدها حلاوة وطلاوة ما يكتب عليها من الآيات والآثار بماء الذهب . والغالب ان صناعتها انقرضت مع ما قرضهُ تيمور من صنائعنا لعهد المئة التاسعة اذ استصحب معهُ من دمشق بعض الاعيان واصحاب الفضل وكل ماهر يفن من النساجين والخياطين وصناع السيوف فكانت المصيبة بذلك على دمشق اعظم من المصيبة بالتخريب فذاك تخريب محسوس وهذا تخريب معنوي مبين . ولقد انتشرت هذه الصناعة والاوربيون لم يعرفوها الاَّ في الحروب الصليبية مع انها على رواية كانت مستعملة قبل الميلاد عند امم ما اشتهروا بجودة صنائعهم .

(النحاس) وينسب فيقال النحاس الظاهري وذلك لما يظهر ان الملك الظاهر بيبرس كان من المنشطين لصناعته ايام ملكه سورية فنسب اليه تحبباً ولم تبرح هذه الصناعة معروفة ولها رواج تباع من السياح والافرنج باثمان رابحة وهي عبارة عن ثريات وجفان وتعاليق ومصابيح وكؤوس ومباخر وقماقم وصحاف وموائد مصنوعة من النحاس الاصفر منقوشة في الغالب احرفاً لا تقرأ مع ان ما صُنع منها في القرون الوسطى كان يكتب عليه بالقلم الكوفي ما لهُ معنى في حد ذاته ولما استحوذ الجهل على اهل تلك الصناعة لم يعودوا يعرفون ما ينقشونهُ

(التنزيل) وهو نقش الحديد او الفولاذ بالذهب او الفضة او معدن آخر او شغل الخشب وتنزيل الصدف او خشب الليمون فيه. وكان عندنا قديماً من ارقى الصناعات فلما استحالت الاحوال كادت صناعتهُ تفقد بتة حتى جُدِّد شبابها منذ بضع سنين وصارت مصنوعاتنا رائجة في اسواق اوربا واميركا تزدان بها قصور الامراء والاغنياء. ونسبت صناعة التنزيل الى دمشق ايضاً فسميت بالافرنجية "داماسكين" لان الافرنج اخذوها عن دمشق. قال المؤرخ هيرودوتس ان مخترعها فلوسيوس من مدينة صاقس وقيل ان الدمشقيين اخترعوها او اوصلوها الى درجة الكمال التي بلغتها عندهم

(النسيج) كانت الاصواف والحرائر والمنسوجات القزلية بوشيها وحسن طرازها مشهورة في غابر الزمن عند الدماشقة وبدينتهم عُرفت فصار يقال لها الدماسكو ولما قام قائم الصنائع الفرنجية واخترع احد صناع الانكليز نسيج الشيت كاد يُقضى على صناعتنا هذه ولولا رجل اسمهُ عبد المجيد الاصفر من اهل هذه الصناعة واختراعهُ القماش المعروف بالديما لبارت النساجة دفعة واحدة ثم ان رجلاً اسمهُ الروماني تفنن في المنسوجات الحريرية تفنناً عجيباً فلما مات مات الصناعة معهُ وتغلبت المنسوجات الاوربية لرخص ثمنها وكثرة تفننهم في تلوينها وتغيير اشكالها وطرازها وبالرغم عما تقدم لم تنفك هذه الصناعة متماسكة احوالها وفيها مرتزق لنحو خمسة عشر الف نسمة من الدمشقيين ويزعمون ان ما يتعلق بها من الصنائع حتى تصلح وتصير اثواباً يقرب من سبعين صنعة وبعض مصنوعاتهم تصرف في بر الشام وبر مصر وبعضها يسافر الى الاناضول والروملي

(الورق) كنت قرأت في بعض الاسفار ان ورق الكتابة كان يصنع بدمشق ولهُ فيها صناع ومكاتب صغيرة تقوم مصنوعاتهم بحاجات هذه البلاد وقال سيديلبو صنع الورق من الحرير سنة ٦٥٠ ميلادية في سمرقند وبخارى ثم استبدل يوسف بن عمر سنة ٧٠٦ ميلادية الحرير بالقطن الذي منهُ الورق الدمشقي المتكلم عليه مؤرخو اليونان. ورأيت كثيراً

من الكتب المخطوطة قديمًا على هذا الورق فلم اميز بينهُ وبين ورق البردي في شيء ان لم يكن ورقنا الطف صقالاً واحسن متانة . واخبرني احد العلماء ان الافرنج ما برحوا متوفرين على كشف سرّ هذه الصناعة كما يحاولون ادراك غيرها. على ان من الورق الاوربي اليوم ما يضاهي بمتانتهِ الورق القديم او اكثر منهُ

(الصباغة) كان للصباغ الدمشقي صيت بعيد في سائر الاقطار لثبوت الوانهِ ولطافة لمعانهِ وكانت اصباغهُ معدنية ونباتية لا غشّ فيها فلما تغلّبت الاصباغ الغريبة بطل استعمال القديم منها بل نُسي امرهُ واعتيض عنهُ بالجديد المغشوش . وجودة الاصباغ القديمة كانت السرّ في اشتهار الديباج الدمشقي قديمًا حتى اوشكت لطافتهُ ان تجري جري المثل

(الدباغة) كان لدبغ الجلود شأن عظيم بحيث يكفي المحضَّر منهُ لامتهانات دمشق وضاحيتها ويسافر منهُ الى البلاد الاخرى ومنذ شاع استعمال الجلود الافرنجية على اختلاف اجناسها ولمعانها ومتانتها ضعفت تجارة الاديم المقروظ وبقي عملها محصورًا بقوم يعمل بمدبوغاتهم احذية للفلاحين واهل الطبقة النازلة وبعض السروج والقرب والقلل

(العطور) كان للطيوب ومستقطرات الزهور شأن خليق بالتسطير فقد ذكر شيخ الربوة ان العطر وغيرهُ كان يستخرج في المزة — هي قرية غربي دمشق بها من صحة الهواء وصفاء الماء وحسن القصور وطيب الثمار ما بقي بعضهُ الى الآن — من زهورها ووروّدها حتى ان خراقتهُ تلقى على الطرقات وفي دروبها وازقتها كالمزابل فلا يكون لرائحتهِ نظير ويكون الذّ من المسك الى مدة انقضاء الورد .ثم ذكر صفة اخراجهِ في الكركات والانابيق ورسم صورها . قال وغير هذه الكركة كركة اخرى يستخرج منها الماورد وغيرهُ من المياه بلا ماء بوقود الحطب وذلك بعد حشر القراع بالورد وبلسان الثور وبزهر النوفر او البان او زهر النارنج والشقيق والهندبا او بورق القرنفل المرروع بدمشق الى ان قال ويحمل الورد المستخرج بالمزة الى سائر البلاد الجنوبية كالحجاز وما وراء ذلك وكذلك يحمل زهر الورد المزّي الى الهند والى بلاد السند والى الصين والى ما وراء ذلك ويسمى هناك الزهر وسما ارخوهُ انهُ كان لقاضي القضاة الحنفية ولاخيهِ الحريريين قطعة بارض تسمى ثُور الزهر طولها مائة وعشر خطوات وعرضها خمس وسبعون خطوة باع منها عشرين قنطارًا باثنين وعشرين الف درهم وذلك سنة خمس وستين وستمائة وهذا لم يسمع بمثلهِ

وهذه الصناعة كانت معروفة على ما يظهر من كلام شيخ الربوة في القرن الثامن اما الآن فليس في المزة ورد يكفي لهذه العطور والمياه واعتاض معظم اهلها عن الاشتغال بذلك بنسج

الحبال والخيوط من قشر القنب. وقد قام بدمشق في المدة الاخيرة بعض اناس يحسنون تقطير العطر وماء الزهور الاَّ ان ما يستخرجونهُ يصرف في حاجات المدينة لا سيما المأكولات والمشروبات اما للتطيب فقد جاءت العطور والادهان الافرنجية تنازع البلدية برخص اثمانها واختلاف اجناسها

هذا وكان في الفيحاء صنائع كثيرة ربما يحتقر شأنها البعض ولكن اذا أُنعم النظر يسجل بانها تُعد من موجبات الحضارة والارتقاء مثل صنعة الابر المفقودة الآن بتة . واكثر الصنائع رواجًا واتقانًا عندنا الآن على وجه الاجمال التجارة والنجانة والبناية والنساجة والحدادة والصباغة والسكافة والحياكة والنحاسة وعمل السروج والاكاف

وقد كان ولا يزال لكل حرفة زعيم او نقيب او شيخ وكان يسمى شيخ الحرف كلها بسلطان الحرافيش ثم كني عنهُ احتشامًا بشيخ مشايخ الحرف والصنائع واليك ما قالهُ صاحب مخامن الشام في وصف ما كان بدمشق من الصنائع :

ومن محاسنها ما يُصنع فيها من القماش وهو النسج على تعداد نقوشهِ وضروبهِ ورسومهِ ومنها عمل القماش الاطلس بكل جنسهِ وانواعهِ ومنها عمل القماش السابوري بجميع الوانهِ وحسن لطافهِ ومنها عمل القماش المرمزي على اختلاف اشكالها وتباين اوصالها ومنها عمل القماش الابيض القطني المقصور لاحياء القصور واموات القبور . وفيها تعمل صناعة الذهب المسبوك والمضروب والمجرور والمرفوع والمحدود والمرصوع وفيها تعمل صناعة القرطلة ودباغتها المرضية وفيها تُعمل صناعة الزنوط والاقباع (كذا) وتحمل الى البلاد والضياع وفيها تعمل صناعة الحرير بالفتل والدواليب وفيها تعمل صناعة السلاح بما فيهِ من الاعاجيب والاقتراح وفيها تعمل صناعة الموشق والمدهون بما تحار فيهِ النواظر والعيون وفيها تعمل صناعة النحاس من الضرب والتفصيل والنقوش وفيها تعمل الواح الصقال ودهن الواح صغار الكتّاب وحفر القصع وتفصيل القبقاب. قال وغالب ما ذكرناهُ من هذه الصنائع تتبدل عليهِ ايدي الصناع من الواحد بعد الواحد الى ان ينيف على عشرة صناع حتى يتم. واعلم ان هذه الصنائع استخرجتها الحكماء بحكمتها ثم تعلم الناس منهم وبعضهم من بعض وصارت وراثة من الحكماء للعلماء ومن العلماء للمتعلمين ومن الاستاذين للتلامذة ومن التلامذة للصناع هكذا نقلهُ ابن جماعة

« تجارتها »

يشهد العيان ويؤيد الحسُّ ان هذا القطر كان فيما غبر ذا تجارة رابحة وعلائق مع البلاد القاصية ناجحة وانهُ كان مركز الاتصال بين الشرق والغرب ودائرة حسن الصلات بين ما

كان يعرف من القارّات فلما دالت الدول وطمع في الامر كل مهوّس فعاث فيهِ العدو الداخلي والخارجي انقضت عليهِ القرون وهو في مهاوي الفتن متسكع وفي مهالك الانحطاط ساقط اذ كان الحكام يعدّون اهلهُ آلة لاغراضهم وخلائق لم يخلقوا الاّ لتتميم شهوات النفوس ورغائب الصدور ولذا لم تزُج التجارة الاّ في الاحايين عند انبساط ظل الامن وعلى عهد الحكومات المسالمة العادلة وهذا من نادر بل من اندر ما تهيأ للبلاد

وبعد سقوط تدمر اصبحت القيجاه سوقاً للتجارة بين البلدان ودامت حالها بين ارتفاع وانخفاض وكمٌ قليل من البضائع الافرنجية يجيء كل سنة مع الصرّة الحجازية عن طريق الاستانة براً الى ان انتبه الاوربيون في القرن الماضي وفتح الانكليز طريقاً للهند من رأس الرجاء الصالح ثم خرقت ترعة السويس فتحولت التجارة اذ ذاك وانتقل ما بقي منها في دمشق الى بعض موانئ سورية وبطل عمل القوافل التي كانت تروح وتغدو بين الشرق الادنى والاقصى وقلّ عدد الذين كانوا يمرون بالمدينة من الاناضول وغربي آسيا للذهاب الى الحج فصار معظمهم يركب البحر الى البقاع الطاهرة تخفيفاً من وعثاء الاسفار وقطع المفاوز والقفار

فانحصرت التجارة ثمت في الداخلية واصبحت لا تتعدّى حد الامتهانات والتصرفات المحلية وصار لها مواسم قلما تروج في غيرها . ولم تدخل المصنوعات الافرنجية بلادنا بكثرة الاّ عقيب اختراع السفن البخارية وشروع بعضها في المجيء الى سورية ولكن كانت منقطعة الوصول متباينة الاوقات فلما استقام مجراها ومرساها جرأ الناس على الاتجار وتضاعفت العلائق التجارية بين سورية والاصقاع الفرنجية من حين الى آخر حتى اصبحت اهم المتاجرات بالواردات الافرنجية، وتجارها ولا خشية من الحقيقة خدمة للاوربيين ينالون لقاء اتعابهم اجرة العامل والخادم وما بقي من تجارة الصادرات فاهمهُ المنسوجات القطنية والحريرية والمصنوعات الخشبية والحنطة والزيت والسمن والصوف وعرق السوس والمشمش وبزره والقمر الدين والخروق البالية والبيض والجلود

ولو لم تكن دمشق باب الكعبة ومركز الفيلق السلطاني الخامس ومن اعمالها ١٢١٤ قرية وبلدة لها علائق معها مباشرة او بالواسطة ولولا ما يصرفهُ فيها الواردون اليها كل عام من الحجاج والسياح لسقطت تجارتها الى حضيض لم يسمع بمثلهِ من الكساد والفاقة بل لولا قلة معرفة القوم واستفادة كل من صاحبهِ ما يقوم باودهِ لالفيت الحال اتعس ما يكون . ومما يضحك ما رواهُ صاحب المحاسن ان ما كان يحمل من دمشق الى الديار المصرية في القرن التاسع عشر قافات انفردت بها وهي قصب ذهب . قبع . قرضية . قرطاس . قوس . قبقاب . قراصيا .

قمر الدين من المشمش . قريشة . قنبريس . اما الآن فليس من احصاء يوثق بهِ لمعرفة صادراتها ووارداتها واعتماد بعض القناصل على اخراج احصاءات بذلك كل سنة الا ان ارقامها تخمينية لا يعتمد عليها ولا يركن في التحقيق اليها . انتهى محمد كرد علي

فتح المكسيك

(تابع ما قبله)

سار اسطول كورتس حول خليج المكسيك بعد الفوز المبين الذي وصفناهُ في الجزء الماضي ورأى جماهير الاهالي على الشاطئ متهللين بقدومهِ اليهم حاسبين انهُ اتى للاتجار معهم غير عالمين ما خُبِّئَ لهم في جعبة الزمان حتى اذا بلغ الاسطول جزيرة صغيرة بينها وبين البر مرفأ امين رأى كورتس ان يلقي مرساتهُ فيهِ حاسباً ان الجزيرة تقيهِ عصف الرياح التي تعصف هناك في اواخر الربيع . ولم تكد سفنهُ ترسو في ذلك المرفإ حتى اسرع الاهالي الى قارب صغير مصنوع من شجرة مجوَّفة فنزلوا فيهِ واقتربوا من سفينتهِ وصعدوا اليها بوجه باش وتحيَّا طلق كمن يقابل صديقاً آتياً من سفر . واتوا معهم بهدايا من الاثمار والازهار وبعض الحلى الذهبية . وحاول كورتس ان يتكلم معهم بواسطة الترجمان فوجد انهُ لا يعرف لغتهم فأسقط في يدهِ وحار في امرهِ ثم قيل لهُ ان واحدةً من الجواري اللواتي أُهدين اليهِ في تابسكا على ما ذكرنا في الجزء الماضي تعرف لغة هؤلاء الاقوام . وهي مكسيكية الاصل ولدت عند التخوم الجنوبية من بلاد المكسيك وتوفي ابوها في حداثتها وكان من رؤساء بلادهِ ومن ذوي الثروة الطائلة فيها فتزوجت امها برجل آخر وولد لها ابن منهُ فسوَّلت لها نفسها ان تعطي ميراث ابنتها لابنها فصبرت الى ان توفيت فتاة من جواريها فادَّعت انها ابنتها واعطت ابنتها لتاجر من بلاد بعيدة فمضى بها وباعها من رئيس بلاد التابسكو وهذا اهداها الى كورتس على ما تقدم . وكانت هذه الفتاة تعرف لغة المكسيك لانها لغة قومها ثم تعلمت لغة تابسكا مدة اقامتها فيها فصارت تترجم اقوال هؤلاء الرجال للترجمان اغويلار وهو يترجمها لكورتس الى الاسبانية او لغة قشتالة . وسمَّى الاسبانيون هذه الفتاة مارينا وسندعوها بهذا الاسم في ما يلي وكانت ذكية الفؤاد فتعلَّمت اللغة الاسبانية حالاً فجعلها كورتس ترجماناً لهُ وحظيت عندهُ فتزوج بها واولدها ابنهُ دون مارتن وكانت على جانب عظيم من الجمال بشوشة الوجه طلقة المحيا كريمة الطباع احبَّت كورتس وخلَّصتهُ وخلَّصت رجالهُ من مهالك كثيرة لكنها لم تسرَّ بما حلَّ بقومها